كتاب الإمتاع والمؤانسة

تأليف

أبي حيان التوحيدي

وهو مجموع مسامرات في فنون شتى

حاضر بها الوزير ابا عبد الله العارض في نحو اربعين ليلة

الجزء الأول

صححه وضبطه وشرح غريبه

أحمد أمين و أحمد الزين

دار مكتبة الحياة
للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة الناشر

ان من غايات مكتبة الحياة للطباعة والنشر ان تبقى مجلية في كل مضمار يرتبط بالكتاب، مهما اختلف نوعه ومنحاه، شرط ان يكون ذا قيمة انسانية يسهم في البناء الثقافي العربي المعاصر، وقد الف القراء مفاجآت هذه المؤسسة النشيطة بكتب التراث العربي الضخمة أمثال «الاغاني» لابي الفرج الاصبهاني و«محاضرات الادباء» لابي القاسم حسين محمد الراغب الاصبهاني و«مجمع الامثال» للميداني و«عيون الانباء في طبقات الاطباء» لابن ابي أصيبعة واخيراً الموسوعة التاريخية الادبية الضخمة «شرح نهج البلاغة» لابن ابي الحديد. كما نشرت «معجم متن اللغة» للشيخ احمد رضا في خمسة مجلدات. مع عشرات الكتب المماثلة في الادب والفكر والتاريخ، يقابلها ثروة من الترجمات العالمية لمفكرين أمثال: اشبنغلر ووايتهد وبرتراند راسل وجان بول سارتر وكامو وجون ديوي وكثيرين غيرهم في حقول مختلفة من اقتصاد وعلم وسياسة وفلسفة وفن الخ.. وغاياتها من هذا النشاط الرصين هي اغناء المكتبة العربية وتهيئة الجوار فيها للكتب العالمية، الآمنة الجوار.

وهي اذ تقدم كتاب «الامتاع والمؤانسة» في حلته هذه فانما تعتبره حلقة من سلسلة في موضوعه تواصل بها رسالتها أمام تراث الحضارة العربية ولخدمة ثقافة العرب المعاصرة.

مقدمة

كتاب الامتاع والمؤانسة

بقلم : أحمد أمين

أبو حيان التوحيدى من أولئك العلماء الأدباء ، الذين أصيبوا فى حياتهم بالبؤس والشقاء ، وظل حياته يجاهد ويكافح فى التأليف واحتراف الوراقة والنسخ وجوب الأقطار ، يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه ، فلم يحظ من كل ذلك بطائل ، وعاش كما يقول فى بعض كتبه على نحو أربعين درهما فى الشهر أى ما يساوى جنيهاً واحداً — مع أنه كما يقول — رأى كل من حوله من العلماء والشعراء يحظون من الأمراء بالمال الكثير والحظ الوافر ، وليس أكثرهم يدانيه علماً أو يجاريه أدبا . قصد ابن العميد وابن عباد وابن شاهويه وابن سعدان وأبا الوفاء المهندس وغيرهم ، ومدح وأطرى ، و بكى واشتكى ، وهدد وأوعد ، فما نفعه مدحه ولا ذمه ، ولا إطراؤه ولا هجاؤه ، فإن استفاد شيء مما عاناه أبو حيان فإنما هو الأدبُ بما كتب وألّف ، و بما هجا واستعطف .

ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن من حظه فى حياته ، فقد عجب ياقوت من أن مؤرخى الرجال لم يترجموا له ، مع أنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، ولم نعثر فيما بين أيدينا من الكتب على ترجمة وافية لحياته إلا نتفاً قصيرة وأخباراً ضئيلة .

وأراد هو أن ينتقم من الناس الذين كفروا صنيعه ، وجحدوا علمه وأدبه ، فأحرق فى آخر أيامه كتبه ، وقال : « إنى جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة

منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، لحرمتُ ذلك كله ... ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم » .

قال السيوطى : « ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كتبت عنه فى حياته وخرجت من قبل حرقها » .

وكان من شؤمه أنه لم يبق من كتبه التى ألفها — وتبلغ نحو العشرين — إلا القليل ، ولم يطبع منها إلا المقابسات والصداقة والصديق ، ورسالة فى العلوم ، وما بقى منها مخطوطاً ، بل وما طبع منهـا مملوء بالتحريف والتصحيف إلى حد يقلل من قيمتها والانتفاع بها .

ولعل أقوم كتبه وأنفعها وأمتعها كتابه الذى نحن بصدده وهو « كتاب الإمتاع والمؤانسة » .

فهو كتاب ضخم يقع فى ثلاثة أجزاء أخذنا أنفسنا بنشره لتعميم نفعه .

ولتأليف أبى حيان لهذا الـكتاب قصة ممتعة ، ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبى حيان وللوزير أبى عبد الله العارض ، فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير ، ووصله به ، ومدحه عنده ، حتى جعل الوزيرُ أبا حيان من سُمّاره ؛ فسامره سبعا وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها ، ويطرح الوزير عليه أسئلة فى مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان .

ثم طلب أبو الوفاء من أبى حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث ، وذكّره بنعمته عليه فى وصله بالوزير ، مع أنه «أى أبا حيان»

ليس أهلا لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته وسوء عادته وقلة مرانته وحقارة لبسته ، وهدده إن هو لم يفعل أن يغض عنه ، ويستوحش منه ، ويوقع به عقوبته ، وينزل الأذى به .

فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء ، ونزل على حكمه ، وفضّل أن يدون ذلك فى كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر ، فوافق أبو الوفاء على ذلك ، ونصحه أن يتوخى الحق فى تضاعيفه وأثنائه ، والصدق فى إيراده ، وأن يطنب فيما يستوجب الإطناب ، ويصرح فى موضع التصريح .

« فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة »

من هو الوزير أبو عبد الله العارض الذى سامره أبو حيان ؟

لقد بحثت عنه فى مظانه فلم أوفق إلى العثور عليه ، وقبل ذلك عُنِيَ المرحوم أحمد زكى باشا بالبحث والسؤال عنه من بعض علماء الشرق والغرب فكان حظه حظى .

وأخيراً رجحت أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى ، وقد ورد اسمه هكذا فى كل ما راجعت من كتب التاريخ أمثال : (تجارب الأمم) وذيله (وابن الأثير) ، ولم يلقبه أحد منهم (بالعارض) ؛ وكلمة (العارض) كما فى كتاب (الأنساب للسمعانى) معناها : « من يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم ، ويوصلها إليهم ويعرضهم على الملك إذا احتيج إلى ذلك » فالظاهر أن الوزير أبا عبد الله لقّب هذا اللقب إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقباً لأسرته ؛ ودليلى على ذلك أمور :

(١) أنه ورد فى صدر هذا الكتاب أن أبا الوفاء ذكر لأبى حيان :

أنك لما انكفأت من الرّى إلى بغداد فى آخر سنة ٣٧٠ مغيظاً من ابن عباد ، وعدتك صلاح حالك ، وأن أوصلك إلى الأستاذ أبى عبد الله العارض ، ثم جاء وصف أبى عبد الله هذا بالوزير .

ونحن إذا رجعنا إلى من استوزر فيما بين سنة ٣٧٠ وسنة ٣٧٥ لم نجد وزيراً يكنى بأبى عبد الله إلا الوزير أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ، فقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ وقتله سنة ٣٧٥ .

(٢) جاء فى أثناء كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أن أبا حيان قص على الوزير أنه سمع رجلا على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن بقية الوزير المشهور مصلوباً بعد أن مات عضد الدولة : « سبحان الله ! عضد الدولة تحت الأرض وابن بقية فوق الأرض » ، فلما سمع الوزير ذلك قال : استأذنت الملك فى دفن ابن بقية فدفن .

وقد ذكر المؤرخون أن ابن بقية دفن فى عهد صمصام الدولة ؛ ولم يكن لصمصام الدولة وزير يكنى بأبى عبد الله غير ابن سعدان .

(٣) ومما يستأنس به أن أبا حيان كان متصلا بالوزير ابن سعدان وألف له كتاب « الصداقة والصديق » وقد ذكر فى أوائله « أن السبب كان فى إنشاء هذه الرسالة أنى ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبى الخير ، فنماه إلى ابن سعدان سنة إحدى [وسبعين] وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أذلالها جارية ، فقال لى ابن سعدان : قد قال لى زيد عنك كذا وكذا . قلت : قد كان ذلك . قال : فدوّن هذا الكلام وصله بصلاته . . . . فجمعت ما فى هذه الرسالة » .

فاتصال أبى حيان بابن سعدان وتأليفه له كتاب «الصداقة والصديق» يرجح الظن بأنه هو أبو عبد الله العارض .

ثم كان من رجال صمصام الدولة من اسمه أبو الحسن بن عمارة العارض استخدمه صمصام الدولة فى السفارة بينه و بين أعدائه أحيانا ، ولكن يبعد أن يكون هو الذى ألف له كتاب الإمتاع والمؤانسة — لأن كنيته أبو الحسن والذى ألّف له الكتاب أبو عبد الله — ولأن أبا الحسن لم يكن وزيراً لصمصام الدولة . وفى الكتاب النص فى مواضع متعددة على أنه ألفه لوزير .

(٤) ذكر فى كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أصدقاء أبى عبد الله العارض وعدد منهم ابن زرعة وأبا الوفاء المهندس ومسكويه والأهوازى وبهرام وابن شاهويه ، وأنهم كانوا يلازمونه وأنهم أهل مجلسه ، وعدد فى كتاب الصداقة والصديق أصدقاء ابن سعدان فإذا هم هم[1] ؛ فاتحاد الأصدقاء وتوافقهم واجتماعهم فى مجلس وزير يرجح الظن جدا بأن ابن العارض هو ابن سعدان .

(٥) جاء فى « كتاب الإمتاع والمؤانسة » أن الوزير سأل أبا حيان عما يقول الناس فيه . فقال له : « سمعت بباب الطاق قوما يقولون : اجتمع الناس اليوم على الشط ، فلما نزل الوزير ليركب الزبزب صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر ، وأنه أجابهم بجواب مُرّ مع قطوب الوجه و إظهار التبرم » .

وهذه الأوصاف كلها تنطبق على ما ذكره أبو شجاع فى كتابه « ذيل تجارب الأمم » عن حادثة جرت لابن سعدان .

***

(١) انظر الصداقة والصديق ص ٣١

وابن سعدان هذا استوزره صمصام الدولة البويهى سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيــه عضد الدولة . جاء فى كتاب « ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع : « وفيها [أى فى سنة ٣٧٣] خُلع على أبى عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان خلع الوزارة — وكان رجلا باذلا لعطائه ، مانعا للقائه ، فلا يراه أكثر من يقصده إلا ما بين نزوله من درجة داره إلى زبزبه[1] ؛ ومع ذلك فلا يخيب طالب إحسان منه فى أكثر مطلبه .... فبسط يده فى الإطلاقات والصلات .... وأحدث من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والـكتّاب والحواشى من أموالهم وأرزاقهم .... وانضاف إلى ضيق خلقه ما اتفق فى وقت نظره من غلاء سعر ، فتطيرت العامة ورجموا زبزبه ، وشغّبوا الديلم عليه ، وجمعوا على نهب داره ، وانتهت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردّهم[2] » .

وقد ظل ابن سعدان فى الوزارة إلى سنة ٣٧٥ حتى ظهر له خصم هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، فظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به .

وحدث أن ابن سعدان أراد أن يعيّن أباه كاتبا لوالدة صمصام الدولة لما ماتت كاتبها ، فقال أبو القاسم لصمصام الدولة : « إن ابن سعدان قد استولى على أمورك ، وملك عليك خزائنك وأموالك ، فإذا تم له حصول والده مع السيدة حصلنا تحت الحجر معه[3] » . وتمت المـكيدة ولم يعيّن أبوه . ثم قبض على ابن سعدان وأصحابه وأودعوا السجن ، واستوزر صمصام الدولة هـذا الواشى

(١) الزبزب : ضرب من السفن .
(٢) ص ٨٥ .
(٣) ص ١٠٣

أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولم يكتف أبو القاسم بحبس ابن سعدان فانتهز فرصة خروج ثائر على صمصام الدولة اسمه « أسفار بن كردويه » يريد خلعه ، فدس أبو القاسم إلى صمصام الدولة أن ابن سعدان متصل بهذا الثائر وأن الذى جرى كان من فعله وتدبيره ، وأنه لا يُؤمَن ما يتجدد منه فى محبسه ، فأمر صمصام الدولة بقتله ، فقتل سنة ٣٧٥

وكان لابن سعدان ناحية أخرى علمية أدبية يصورها أبو حيان فى كتبه ، فهو واسع الاطلاع ، له مشاركة جيدة فى كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق ، يدل على ذلك حواره الذى يحكيه أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة والمقابسات ، فهو يسأل أسئلة عميقة ، وينقد الإجابة عنها نقداً قيما .

وفوق ذلك كان له فى وزارته منتدى يجمع كثيراً من جلة العلماء والأدباء منهم ابن زرعة الفيلسوف النصرانى ، وابن مسكويه صاحب (تهذيب الأخلاق) (وتجارب الأمم) ، وأبو الوفاء المهندس الذى سنتحدث عنه ، وأبو سعد بهرام بن أردشير ، ومن الشعراء ابن حجاج الشاعر الماجن المشهور ، ومن الكتّاب أبو عبيد الخطيب الكاتب ، وأبو حيان صاحبنا .

وكان له مجلس شراب يجلس إليه بعض هؤلاء فيتفكهون ويتنادرون ويذهبون فى فنون الحديث كل مذهب ، ومجلس جد يتحاورون فيه ويتناقشون فى الفلسفة والأخلاق والأدب .

وكان يباهى بمجلسه ويفخر به على مجالس الأمراء المعاصرين له ، مثل المهلبى وابن العميد والصاحب بن عباد . فيقول فى أصحابه هؤلاء : « ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، . . . وأن جميع ندماء المهلبى لا يفون بواحد من

هؤلاء ، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل مَن فيهم ، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون و يحمقون ويتصايحون[1] » . فلا عجب — إذن — أن يكون من نتاج ابن سعدان الوزير العالم هذا الكتاب الذى نحن بصدده ؛ كتاب « الإمتاع والمؤانسة » .

* * *

وأما أبو الوفاء الذى وصل أبا حيان بابن سعدان والذى ألف أبو حيان له كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ودوّن له فيه كل ما دار بينه و بين الوزير فى سبع وثلاثين ليلة ، فهو محمد بن محمد بن يحيى البُوزجانى . ترجم له ابن النديم فى (الفهرست) وابن خلكان فى (وفيات الأعيان) ؛ وقال فيه هذا الأخير : « إنه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس — وهو القيم بهذا الفن — يبالغ فى وصف كتبه ، و يعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله وكان عنده من تآليفه عدة كتب .... وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان ، وقدم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفى سنة ٣٧٦ » . وقد ذكر ابن خلكان أنه نقل تاريخ الوفاة هذا من شيخه ابن الأثير . ولكن الذى فى ابن الأثير أنه عدّ وفاته فى حوادث سنة ٣٨٧ ، فإما أن ابن خلكان أخطأ فى النقل أو أن الناسخ أخطأ فى الكتابة .

وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان كما تقدم ، وقد وصفه ابن سعدان فى جملة ما وصف من أصحابه . فقال : « وأما أبو الوفاء فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة والمساعدة المطربة والمفاكهة اللذيذة والمواتاة الشهية ، إلا أن لفظه خراسانى ، و إشارته ناقصة ، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادى

(١) انظر رسالة الصداقة والصديق ص ٣٣

إذا تخرسن كان أعلى وأظرف من الخراساني إذا تبغدد[1] » .

***

إلى هنا رأينا أن الكتاب ألِّف لأبي الوفاء المهندس ، نقل فيه أبو حيان ما دار بينه وبين ابن سعدان . ولكن القفطي في كتابه « أخبار الحكماء » عند ترجمته لأبي سليمان المنطقي أورد كلاما يناقض ما نقول ، سواء في ذلك من ألف له الكتاب ، ومن دار الحديث بينه وبين أبي حيان .

فقد ذكر : « أن أبا سليمان كان أعور ، وكان به وَضَح ، وكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله ، فلا يأتيه إلا مستفيد وطالب علم ، وكان يشتهي الاطلاع على أخبار الدولة وعلم ما يحدث فيها . . . . . وكان أبو حيان التوحيدي من بعض أصحابه المتصمين به ، وكان يغشى مجالس الرؤساء ويطلع على الأخبار ، ومهما علِمه من ذلك نقله إليه وحاضره به ، ولأجله صنف كتاب « الإمتاع والمؤانسة » نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي عند ما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة[2] » . وأنا أرجح خطأ القفطي في الوجهين معاً .

فأما في الأول : فإن النسخة التي بيدي تذكر أنه ألفه لأبي الوفاء المهندس لا لأبي سليمان المنطقي . ويقول في صدر الكتاب : إنه ألفه ردا لجميل أبي الوفاء إذ كان هو الذي أوصله لأبي عبد الله . وعندما يأتي ذكر أبي الوفاء في ثنايا الكتاب ، ويسأل أبو عبد الله أبا حيان عن رأيه فيه يمدحه ويثني عليه ، ويقول : كيف أذمه وهو الذي أوصلني بك ، وقد سبق أن أثبتنا أن أبا الوفاء كان من ندماء أبي عبد الله .

(١) الصداقة والصديق ٣٢ .
(٢) أخبار الحكماء ص ٢٨٣ .

ودليل آخر ، وهو أن أبا حيان فى بعض كلامه فى الـكتاب يستجدى من ألّف له الـكتاب ، وقد كان أبو الوفاء المهندس فى منزلة تسمح له بذلك ، فإنه رجل جليل القدر يلقبه الوزير بشـيخنا . أما أبو سليمان فكان فقيراً كما ذكر ذلك أبو حيان فى هذا الـكتاب ، وكانت صلة أبى حيان به صلة علمية لا صلة مالية ، فمن البعيد جدا أن يستجديه أبو حيان .

ودليل ثالث : وهو أن الوزير أبا عبد الله سأل أبا حيان فى الـكتاب عن أبى سليمان هذا ، فذكر له أوصافه ، وفيها ما هو عيب لأبى سليمان كقوله : إنه يجتمع مع قوم للشراب ، ويذكر بعضهم الوزير بالسوء ، فلو كان أبو حيان ألفه لأبى سليمان لـكان بعيداً كل البعد أن يذكر هذا الحديث .

ودليل رابع : وهو أن أبا حيان ينقل فى كتابه هذا عن أبى سليمان ، ويذكر آراءه ، وينقل بعض رسائله إلى الوزير ، ولو كان يؤلف الـكتاب لأبى سليمان لاستغنى عن ذكر ما يعرفه أبو سليمان عن نفسه من أقواله ورسائله ، ولـكان أبو حيان فى ذلك كمن ينقل إلى البئر ماءه ، وإلى الـكنز ذهبه ، وهذا غير مألوف ولا مستساغ .

لهذا كله نرجح خطأ القفطى فيما ذهب إليه من أنه ألفه لأبى سليمان المنطقى .

كما نرجح خطأه فى الشق الثانى ، وهو أن أبا حيان دوّن فيه ما كان يدور بينه وبين أبى الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى وزير صمصام الدولة .

ذلك لأن النسخة التى بين أيدينا يذكر فيها أبو حيان أنه دوّن فيه ما دار بينه وبين أبى عبد الله العارض لا أبى الفضل عبد الله بن العارض . وقد راجعنا كتب التاريخ التى بين أيدينا وأحصينا فيها من تولى الوزارة لصمصام الدولة ، فلم نجد من بينهم أبا الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى الذى ذكره القفطى

وكما تقول دائرة المعارف الإسلامية فى مادة أبى حيان تبعا له .

نعم رأينا من يسمى أبا الفضل الشيرازى ، وكان يعيش فى هذا العصر ولـكن اسمه أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازى لا أبو الفضل عبد الله الشيرازى كما يقول القفطى . وكان هذا كاتباً لا وزيراً ، وكان صديقاً لأبى على الحسن التنوخى ، ونقل عنه كثيراً فى كتابه « نشوار المحاضرة » ولقبه الـكاتب لا الوزير . والذى ألف له الإمتاع والمؤانسة وزير لا كاتب .

يضاف إلى ذلك ما ذكرنا قبل من البراهين .

فالـكتاب — فى رأينا — كتب لأبى الوفاء المهندس لا أبى سليمان المنطق ودون فيه ما دار فى مجلس ابن سعدان لا أبى الفضل الشيرازى .

* * *

وصف الـكتاب : قال القفطى فى وصفه : « وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فإنه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة ، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيًا وتوسّطه محدّثا ، وختمه سائلا ملحفاً [1] » .

قسم أبو حيان كتابه إلى ليال ، فكان يدون فى كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لى وسألنى وقلت له وأجبته . وكان الذى يقترح الموضوع دائماً هو الوزير . وأبو حيان يجيب عما اقترح ، وكان الوزير يقترح أولا موضوعا حسبما اتفق و ينتظر الإجابة ؛ فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكاراً ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها و يسأله عنها ، فقد يسأله سؤالا يأتى

(١) أخبار الحـكماء ٢٨٣ .

فى أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبى سليمان المنطقى ، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم ، وهكذا ، يستطرد من باب لباب ، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالباً أن يأتيــه بطرفة من الطرائف يسميها غالبا : « ملحة الوداع » فيقول الوزير — مثلا — : إن الليل قد دنا من فجره ، هات ملحة الوداع . وهذه الملحة تكون — عادة — نادرة لطيفة أو أبياتا رقيقة ، وأحيانا يقترح الوزير أن تكون ملحة الوداع شعراً بدويا يشم منه رائحة الشيح والقيصوم وهكذا .

وأحيانا يكلفه الوزير أن يتم له المسألة المعروضة فى رسالة ؛ فقد سأله مرة عن المصادر التى تجىء على وزن تفعال ، فأجابه أبو حيان عن بعضها ، ثم طلب منه الوزير أن يجمع له ما جاء فى اللغة منها .

وأحيانا يتخذ الكلام شكل حوار . فأبو حيان — مثلا — يروى عن ديوجانيس أنه سئل : متى تطيب الدنيا ؟ . فقال : « إذا تفلسف ملوكها ، وملك فلاسفتها » ؛ فلم يرض الوزير عن هذا ، وقال : إن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرّغ نفسه للدار الآخرة ؛ فكيف يكون الملك رافضاً للدنيا وقالياً لها ، وهو محتاج إلى سياسة أهلها ، والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفى مفاسدها ! — وأطال فى ذلك — وفى كثير من الأحيان يعلق الوزير على إجابة أبى حيان بالاستحسان أو الاستهجان مع ذكر أسباب ذلك .

وأحيانا يطلب إليه الوزير أن يحضّر له رسالة فى موضوع ، ثم يتلوها عليه فى جلسة مقبلة كما فعل مرة ، إذ كلفه أن يكتب له فى المجون والملح ، ففعل أبو حيان وقرأها عليه فى مجلس . قال أبو حيان : « فلما قرأتها على الوزير قال : ما علمت أن مثل هذا الحجم يحوى هذه الوصايا والملح » .

وآونة يثير الوزير مسائل أشكلت عليـه فى اللغة والفلسفة والاجتماع ، يعرضها على أبى حيان ويطلب منه الجواب فيفعل .

ويحدث أحياناً أن الوزير يدفع لأبى حيان برقعة فيها أسئلة يطلب إليـه أن يفكر فى الإجابة عنها ، ويتصل بغيره من العلماء ليأخذ رأيهم فيها ؛ كما حدث مرة أنه دفع إليـه رقعة بخطه فيها مطالب ، وقال : باحث عنها أبا سليمان وأبا الخير ، ومن تعلم أن فى محاورته فائدة . وكان فى الرقعة أسئلة منها عن الروح وصفته ومنفعته ، وما المانع أن تكون النفس جسما أو عرضاً أو هباء ؛ وهل تبقى ؟ وإن كانت تبقى فهل هى تعلم ما كان الإنسان فيه ههنا الخ . ويقول الوزير فى آخر هذه الرقعة : « إن هذا وما أشبهه شاغل لقلبى وجاثم فى صدرى ، ومعترض بين نفسى وفكرى ، وما أحب أن أبوح به لكل أحد » ؛ ويأمره بأن يكتم خطه فإن أراد أن يعرض هذه المسائل مكتوبة على أبى سليمان فلينسخها بخطه هو . ثم سأل أبو حيان أبا سليمان وذكر إجابته عنها ونقلها إلى الوزير ، وعلى هذا النمط يجرى تأليف الكتاب .

وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعا ظريفاً لا تخضع لترتيب ولا تبويب ، إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث . حتى لنجد فى الكتاب مسائل من كل علم وفن ؛ فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس ، وغير ذلك مما يطول شرحه .

* * *

فلما أراد أبو حيان أن يدوّن لأبى الوفاء ما دار بينه وبين الوزير زاد فيه ونمق الحديث . وكان يدوّن جزءاً ويرسله إلى أبى الوفاء ويتبعه بجزء آخر وهكذا ...

وحدث هو نفسه عن ذلك كله فى أول الجزء الثانى فقال : « قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمتَ لى القيام به ، وشرفتنى بالخوض فيــه ، وسردت فى حواشيه أعيان الأحاديث التى خدمت بها مجلس الوزير ، ولم آل جهداً فى روايتها وتقويمها ، ولم أجنح إلى تعمية شيء منهـا ، بل زبرجت كثيراً بناصع اللفظ مع شرح الغامض ، وصلة المحذوف ، و إتمام المنقوص ، وحملته إليك على يد « فائق » الغلام ، وأنا حريص على أن أتبعه بالجزء الثانى ، وهو يصل إليك فى الأسبوع إن شاء الله .

وقد خاف أبو حيان من بعض ما ورد فى الـكتاب ؛ فإنه فى حديثه مع الوزير عاب أشخاصاً من رجالات الدولة الذين يستطيعون إيذاءه ، فرجا أبا الوفاء أن يحفظ هذا الـكتاب سرا ، فقال : « وأنا أسألك ثانية على طريق التوكيد كما سألتك على طريق الاقتراح أن تكون هذه الرسالة مصونة عن عيون الحاسدين العيابين ، بعيدة عن تناول أيدى المفسدين المنافسين ، فليس كل قائل يسلم ، ولا كل سامع ينصف » .

وقد أنجز أبو حيان وعده ، وأرسل إليــه الجزء الثانى على يد غلامه فائق أيضاً . ثم أرسل إليه الجزء الثالث وهو الأخير ، وقال فى أوله :

« قد أرسلت إليك الجزءين الأول والثانى . وهذا الجزء — وهو الثالث قد والله ألقيت فيه كل ما فى نفسى من جد وهزل ، وغث وسمين ، وشاحب ونضير ، وفكاهة وأدب ، واحتجاج واعتــذار .... ولأنه آخر الـكتاب ختمته برسالة وصلتها بكلام فى خاص أمرى » .

وعلى هذا الوضع ينتهى الـكتاب .

ولست أستبعد أن يكون أبو حيان قد تزيد فيه ، واخترع أشياء لم تجر فى

مجلس الوزير ، فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل ، فقد اتهمه العلماء من قبل ومنهم ابن أبى الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة المعزوّة إلى أبى عبيدة على لسان أبى بكر وعمر فى حق على بن أبى طالب ، ولعل هذا التزيد كان من ضمن الأسباب التى دعته أن يرجو أبا الوفاء فى أن يكون الكتاب سرا ، فإنه ألف الكتاب فى حياة الوزير ، وخشى أن الوزير يطلع عليه فيعلم مقدار ما تزيد .

أما أنه ألفه فى حياة الوزير ، فالدليل عليه ما جاء فى نسخة ميلانو : « أنشئت هذه الرسالة فى رجب سنة ٣٧٤ » والوزير ابن سعدان ظل وزيراً من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ كما تقدم .

* * *

وأيا ما كان ، فالكتاب ممتع مؤنس كاسمه ، يلقى نوراً كثيراً على العراق فى النصف الثانى من القرن الرابع — أعنى فى العصر البويهى — وهو عصر مغبش بالظلام فإنه يتعرض لكثير من الشؤون الاجتماعية فى ثنايا حديثه ، فيصف الأمراء والوزراء ومجالسهم كابن عباد وابن العميد وابن سعدان ، ومحاسنهم ومساويهم ، ويصف العلماء ، ويحلل شخصياتهم ، وما كان يدور فى مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وشراب ، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين كالمناظرة الممتعة التى جرت بين أبى سعيد السيرافى ومتّى بن يونس القُنّائى فى المفاضلة بين المنطق اليونانى والنحو العربى ، ورأى العلماء فى الشعوبية والمفاضلة بين الأمم ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وفى الكتاب النص الوحيد الذى كشف لنا عن مؤلفى إخوان الصفاء ، وقد نقله القفطى منه ، إذ كان الوزير قد سأل أبا حيان عن هذه الرسائل ومن ألفها ؛ وعن القفطى نقله كل من كتبوا عن إخوان الصفاء .

كما أن فيه فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة ، فهو يصف كثيراً حالة الشعب فى عصره وموقفهم من الأمراء والملوك ، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك .

وكما يعرض أحياناً للحياة الاجتماعيـة الشعبية فيذكر عدد القينات فى الـكرخ فيقول : « ولقد أحصينا فى سـنة ٣٦٠ : ٤٦٠ جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر ، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحسن . هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهرون بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط أو ثمل فى حال أو خلع العذار فى هوى » . وأطيل جدا لو وصفت ما فى الـكتاب من فوائد .

ثم إن أسلوبه فى تقسيمه إلى ليال ، وذكره ما دار فى كل ليلة على سبيل الحديث والحوار ، يجعله لذيذاً شـيقاً ، أو على حد تعبيره هو — ممتعاً مؤنساً — فهو أشبه شىء بألف ليلة وليلة ، ولـكنها ليست ليالى لهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام ، إنما هى ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء ، إذ يتعرض فيه لأهم مشاكل الفلاسفة ، كالبحث فى الروح والعقل والقضاء والقدر وما إلى ذلك ، كما يتعرض لمشاكل البلغاء كالليلة البديعة التى جرى فيهـا الحديث عن النثر والنظم والمفاضلة بينهما ، ومزايا كل ونقصه وهكذا . فإن كان ألف ليلة وليلة يصور أبدع تصوير الحياة الشعبية فى ملاهيها وفتنها وعشقها ، فـكتاب الإمتاع والمؤانسة يصور حيـاة الأرستقراطيين أرستقراطية عقلية ؛ كيف يبحثون ، وفيم يفكرون ، وكلاهما فى شكل قصصى مقسم إلى ليال ، وإن كان حظ الخيال فى الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه فى ألف ليلة وليلة .

وأسلوب أبي حيان في الكتاب أسلوب أدبي راق كعهدنا في كل كتابته ؛ يحب الازدواج ويطيل في البيان ، ويحتذى حذو الجاحظ في الإطناب والإطالة في تصوير الفكرة ، وتوليد المعاني منها حتى لا يدع لقائل بعده قولا ؛ ولكن أغمضَ أسلوبه في هذا الكتاب تعرضه كثيراً لمسائل فلسفية عميقة قد عزّت على البيان ، ودقت عن الإيضاح ، فإذا هو خرج عن هذه الموضوعات الدقيقة إلى موضوعات أدبية : كوصف لفقره وبؤسه ، أو وصف للكرم وفوائده ، أو وصف للسان والبيان ؛ جرى قلمه وسال سيله وأجاد وأبدع .

نُسخ الكتاب : للكتاب — فيما أعلم — نسختان ، لا أعلم لهما في مكاتب العالم ثالثة .

فأما النسخة الأولى فكاملة ، وهي تقع في خمسة أقسام .

وقد جاء في طرة الجزء الثاني ما نصه : « رسم لخزانة السلطان الأعظم ، مالك رقاب الأمم ، مولى ملوك العرب والعجم ، باسط الأمن والأمان ، ناشر العدل والإحسان ، أبي المفاخر فخر الدنيا والدين سليمان بن غازى « محمد الأيوبي » خلد الله تعالى مملكته وسلطانه ، وأعلى في الخافقين عزه وبرهانه » .

فالجزء الثاني كتب للعادل سليمان بن غازى الأيوبي .

***

وكان العادل سليمان أديبا شاعرا ، جاء في (كشف الظنون) ذكر كتاب اسمه « الدر الثمين في شعر الثلاثة السلاطين » وهم : « العادل سليمان الأيوبي وولده الأشرف أحمد وولده الكامل خليل » . فسليمان هذا هو صاحب الخزانة المكتوب هذا الجزء برسمها .

وجاء فى آخر هذا الجزء : « تمت الجزء الثانى من كتاب المؤانسة والإمتاع بحول الله وحسن توفيقه فى شوال سنة خمسة عشر وثمانمـائة على يد أضعف العباد شرف بن أميره فى حصن المحروسة حماها الله تعالى عن الآفات والعاهات آمين يا رب العالمين » .

وخط الجزء الثانى (وهو فى ثلاثة مجلدات) مخالف لخط الجزء الأول (وهو فى مجلدين) ، و إن كان الخطان قريبى الشبه بعضهما ببعض ، والجزء الأول غير مضبوط ، والثانى مضبوط بالضبط الـكامل . وكلا الجزئين مملوء بالأخطاء الخطيرة بالزيادة والنقص والتحريف ، ويظهر أن الـكاتبين من الخطاطين الذين يجيدون الخط ولا يحسنون الفهم . وكاتب الجزء الثانى يغلب على الظن أنه تركى لا يحسن العربية فهو يقول : « تمت الـكتاب » « لا تم الـكتاب » . و يقول « فى سنة خمسة عشر وثمانمائة » بدل « خمس عشرة » وهذه — مع الأسف — هى وحدها النسخة التامة .

وهـذه النسخة أخذها المرحوم أحمد زكى باشا بالفتوغرافيا من مكتبة طوب قبو سراى لما اطلع على الـكتاب وعرف قيمته . وقد أحضر النسخة الفوتوغرافية معه إلى القاهرة ، واحتفظ بهـا فى مكتبته الخاصة ؛ وقد قرأ الـكتاب ، ووضع فى الصفحة الأولى من كل جزء فهرسا بعدد الليالى و بعض الموضوعات ، كما وضع أسماء الأعلام الواردة فى الـكتاب أمام كل صفحة ، مما يدل على أنه كان يريد نشره ، ويريد ترجمة الأعلام التى وردت فيـه ولـكن لم يتعرض لتصحيح شىء مما فيه من أغلاط .

وقد توفى — رحمه الله — وهى فى مكتبته الخاصة ، فاشتراها السيد حمدى السفرجلانى الدمشقى ، وباعها لدار الـكتب المصرية .

والنسخة الثانية نسخة فوتوغرافية أخذت من أصل فى ميلانو ، وليست كاملة ، وإنما هى قطع ثلاث : قطعتان من الجزء الثانى وقطعة من الجزء الثالث وهى مشوشة غير مرتبة ، وقد استحضرها زكى باشا أيضا ، واحتفظ بها لنفسه ، ثم بيعت لدار الكتب .

ولم يذكر فى أية قطعة من القطع تاريخ نسخها ، وخطها واضح وجميل أيضا ومضبوطة . ولكنها فى جملتها لا تقل فى الأخطاء عن سابقتها .

وقد كان فى نية السيد حمدى السفرجلانى نشر المخطوطة قبل بيعها لدار الكتب ، فاستنسخ نسخة منها ، وقرأها مع بعض أفاضل دمشق ، منهم الدكتور حسنى سبح والسيد رشدى الحكيم وخليل مردم بك ؛ واستظهروا بعض تصحيحات لما وجدوه فى هذه النسخة من تحريف .

وبقيت بعد ذلك مملوءة بالأغلاط كثيرة الجمل والألفاظ التى تشبه الألغاز حتى لا يخلو سطر منها من وقفات تستدعى الجهد الشديد فى تصحيحها . فعُرض على لجنة التأليف نشره ، فوافقت على ذلك ، وعهدت إلى كاتب هذه السطور والأستاذ أحمد الزين بتصحيحه ؛ وقد بذلنا معا جهداً كبيرا فى تصحيح المحرّف من ألفاظه ، وتفسير غريبه ، وشرح المشكل من عباراته ، وتكميل الناقص من جمله ، وضبط الملتبس من كلماته ، والتعريف بكثير ممن ورد ذكرهم فيه من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، وهذا هو جهدنا نقدّمه للقراء .

ومع هذا فربما نكون قد أخطأنا الصواب أو أغفلنا بعض المحرف ، وقد أثبتنا ألفاظه المحرفة فى حواشى صفحاته . ويلاحظ أننا فى أكثر الأحيان نثبت اللفظ المحرف وحده غير منبهين على أنه محرّف اتكالا على فهم القارئ ، وفى بعض الأحيان ننبه على أنه تحريف وأن صوابه ما أثبتنا ؛ كما يلاحظ أننا

قسمنا كل ليلة من ليالى هذا الجزء إلى موضوعات ، مثبتين فى أول كل موضوع رقما يدلّ عليه .

فنحن ننشر الجزء الأول من الكتاب اعتمادا على نسخة طوب قبو سراى وحدها ، حتى إذا وصلنا إلى الجزء الثانى أمكننا الانتفاع بنسخة ميلانو .

ولعلنا بهـذا النشر نحسن إلى أبى حيان بالتعريف بقيمته ، والإشادة بذكره ، بعد أن أساء إليه الزمان ، فأماته فى حياته ، وأخمد اسمه بعد وفاته ؛ كما نحسن إلى عصره فنلقى عليه بعض الضوء ، وقد اكتنفه الظلام ، وعفت على آثاره الأيام ، والسلام .

أحمد أمين